مفهوم العمل الأدبي

بقلم الطيب الشريف

لقد تقادمت هذه الاسطوانة المكرورة التي ما فتيء مديروها يقلبونها على وجهيها . ليعيدوا على اسماعنا اغنية دامعة جعلوا عنوانها : « ازمة الادب » في البلاد العربية .. وهي اغنية تصف واقعا مشاهدا بلا ريب .. ولكن اصحابها عندما يحاولون تحليل « الازمة » ويسعون الى ايجاد حل لها ، يعمدون الى النظر اليها بمعزل عن وضعها الحقيقي ، فلا يتناولونها كظاهرة اجتماعية مرتبطة بالانسان المنتج في علاقاته المختلفة بالبيئة التي يقدم لها انتاجه الفكري ، وبموقف هذه البيئة من انتاجه ونظرتها اليه . فهم يقررون بحق ما هو واضح من ان ادب الشيوخ من ادباء الجيل الماضي قد اصبح لا يفي بكل مطالب المرحلة التاريخية الراهنة التي يجتازها العالم العربي اليوم .. كما يلاحظون ضروب القصور المتباينة التي تتضمنها نوعية الانتاج الفكري الذي يقدمه الشباب من ادباء هذا الجيل .. فينوهون بهذه المعطيات ويطيلون التنويه ، ولكنهم عندما ينتقلون إلى الشطر الثاني من المسألة واعني الشطر الماثل في وضع حل لها ، نراهم يتخذون من القضية موقفا غريبا ينم عن السلبية من جانب ، وعن الخطأ في تصور المشكلة من جانب اخر .. اما السلبية فتتمثل في اتجاههم الى هذا النوع الفريد من الاستجداء واستجلاب العطف ، الذي يتلخص في دعوة « الحكومات » و « الجهات الرسمية » الى ما يدعونه « بتشجيع » الادباء والمفكرين ، ورصد « جوائز » و « معونات » للمتفوقين منهم ، وكأنهم يريدون بمثل هذه الدعوة ان يلقوا بعبء المسؤولية على تلك الجهات وحدها ، وان يبرئوا ساحتهم من مسؤوليتهم الحقيقية في هذا الصدد .. ومن هنا الى ان يسخر الله الجهات المدعوة الى تقديم الاحسان المطلوب ، تظل المشكلة معلقة ، ويظل الاديب على انتظاره الامل متذرعا بصبره على شقائه ان كان من ذوي الصبر والجلد — « وكثيرا ما يكون .... » — او هو يلوذ بالصراخ ، فلا يملك غير اللجوء الى ادارة تلك الاسطوانة القديمة المكرورة التي ما فتئت تدور حول نفسها على محور ثابت ، لتستأنف من جديد — وربما الى الابد — اغنيتها التاحبة المأزومة ..

وبما ان « الجوائز » و « المعونات » المقترحة — (على فرض وجودها ، وعلى فرض خلوها من المجاملات والتحيز والخطأ في التقدير) — لا تقدم حلا شاملا وجذريا لضائقة الادباء والمفكرين جميعا ، فلا مندى لنا عن الحكم عليها بانها طريقة سلبية في جوهرها لانها تكتفي بالتخلص من القضية بالقاء المسئولية على عاتق جهات غير مضمونة ، نسلم بقصورها وتقصيرها في هذا المجال من ناحية ، ومن ناحية اخرى فهي طريقة عشوائية لانها لم تتمثل بعد الوضع الطبيعي للمشكلة حتى تتمكن من اتخاذ الوسائل الضرورية الموائمة للحل الاساسي كما يجب ان يكون ..

واما الخطأ في تصور المشكلة فيتصل في رأيي بمفهومنا الشائع « للعمل » .. لانه في هذا المفهوم تكمن ادواؤنا . ولكي نتمكن من بلورته بما فيه الكفاية ، ارى استعراضه مع القارىء في وضعه الذي ينطبع به على سلوكنا العام افرادا وجماعات .. :

— فنحن نرى قطيعا ضائعا من الشباب المستنير الذي يقتات الجوع ، ويعاني مذلات الحرمان وعذابات الالام ، والذي يحاول بالرغم من كل هذه الحواجز التي تتحدى مصيره ، ان « يعمل » ويقدم للمجتمع « انتاجا » ، جاهدا من نقطة الصفر في سبيل تحقيق انسانيته بالاخرين ومعهم ، الا انه لا يجد من يؤازره بايجابية بناءة تمكنه من دعم ذاتيته ، وتوسيع رحابها بغية انجاز تكاملها الضروري مع المجتمع والحياة ، باستثناء احالات نادرة من التآزر الفردي او المؤقت الذي يرضخ لما يشبه الصدف والحظوظ ولا يحل المشكلة في نطاقها الكبير اعني كقضية اجتماعية مرتبطة بالاجيال على مسار التاريخ ..

— كما نرى ان مفهوم « العمل » الفكري — (بوصفه « جهدا » انسانيا حيويا ، و« نتاجا » اجتماعيا ضروريا ، لا يقل في قيمته — من حيث الكم والكيف — عن اي جهد وانتاج اخرين ، مما تقوم عليه حياة المجتمعات ومطالبها المعيشية والحضارية) — نرى هذا المفهوم لما يتخلص بعد في اذهاننا من ذلك الاعتبار المتلبس بمنطقتي اللاشعور والشعور في نفسيتنا ، وهو الاعتبار الذي يرى في كل « عمل فكري » مجرد « ترف عقلي » ليس بكبير غناء في الحياة « العملية » او هو في احسن الاحوال « حاجة كمالية » قد يلوذ بها من يجدون من اوقاتهم فراغا يملأونه بهذا المكمل المسلي اذا ما توافر هذا الفراغ ، على انه في كل مظاهره لا يعدو ان يكون مشغلة لفريق من الناس الحالمين التأمليين الذين يمتلكون قدرة سحرية على ابتداع « قصور » خيالية يخدعون بها انفسهم ليتعزوا بها عن « اكواخهم » في واقع الحياة ، ويخدعون بها الاخرين اذ يلهونهم بها عن كل ما يثبت اقدامهم في الارض ... انهم تجار فاشلون لانهم يبيعون ازهد بضاعة في هذه المعمورة

هي الالفاظ !..

وواضح ان هذا المفهوم ينطوي في جوهره على احتقار دفين « للكلمة » ، واتخاذها على انها النقيض الحاسم « للفعل » ، الامر الذي يفرغ الكلمة من فعاليتها ويجعلها مجرد شكل فاقد لمحتواه ، اي فاقد في الحقيقة لعنصر الحياة فضلا عن الاحياء: كالجثة بغير روح او الكلمة بغير معنى.

وما دامت الكلمة على هذا المدى من الهوان ، وما دام الفكر يتخذ سبيله الى الاخرين متذرعا بالكلمة ، فقد اصبح الفكر مهانا هو الاخر لهذه العلاقة ، وبالتالي اصبح « الفكر » في تقابل حاسم مع « العمل » .. حتى اني عمدت اكثر من مرة الى سؤال الكثيرين من الطلبة الجامعيين عما يفهمونه من عبارة « العمل الفكري » ، فأجمعوا على انه مجرد « تعبير مجازي » ليس المقصود منه ان الفكر عمل او جهد كغيره من الاعمال والجهود الاخرى ، وانما هي تلك الظاهرة « البلاغية » الصرفة ، التي تصنف اللفظ قسمين : حقيقة ومجازا ، فاما الحقيقة فهي : اللفظ الدال على موضوعه الاصلي ، واما المجاز فهو : ما اريد به غير المعنى الموضوع له في اصل اللغة كما يقول اساتذتهم البلاغيون !..

وهذه نظرة جد خطرة في انطوائها على تصور خاطىء في جذوره « لمفهوم العمل » في كليته ، وكأني بها تبلغ من السذاجة مبلغا يجعلها تنظر الى عملية التفكير والتعبير بمعزل عن اي نشاط عضوي حي ، في مقابل نظرتها للعمل على انه عملية آلية توشك ان تتم بمعزل عن كل ديناميكية الكيان الادمي الماثلة في الدماغ والجهاز العصبي في علاقتهما المتكاملة بسائر البنية العضوية الحية.

وهكذا (« فالعمل » : آلية جثمانية تنتج محصولا كميا و « التفكير » : لهو تأملي ينتج محصولا لفظيا) !.. وربما مثلت هذه النظرة اقصى ما يمكن ان يبلغه الانحطاط العقلي في هذا المجال لاي جماعة بشرية حضرية حيثما تكون.

وانا لا انوي ان استطرد فادفع بتحليل هذه الظاهرة ـ على خطورتها واهميتها ـ الى آماد مقتضيات التحليل ونتائجه الضرورية .. ولكن القارىء اذا اراد ان يربط هذا المنحنى الفكري بعلاقاته ومؤثراته في الفرد والمجتمع ، والحضارة التي تكتنفهما ، لا شك يعثر على نتائج ذات اهمية بالغة ..

فاذا انتقلنا بهذا المفهوم ، واخذنا احدى صور انعكاسه المعوق الهدام بمثابة مثال توضيحي ، وجدنا له تطبيقا نموذجيا في موقف « دور النشر » و « المجلات الفنية »، من المفكرين الشبان .. فقد كان من الطبيعي ان يؤدي ذلك المفهوم الشائع ، الى « مجانية » العمل الفكري : اننا نسلم جميعا بان (لكل « عمل » ـ « مقابل ») ، ولكن هذه المسلمة تلتوي لتؤول الى «رفض » مطلق ، كلما كنا بصدد « عمل فكري لاحد الشبان » ، ففي هذه الحالة يكفي الشاب المفكر كمقابل لعمله ، ان تتكرم عليه المجلة اودار النشر « بالتشجيع » ، ويعنون بالتشجيع هنا : التفضل عليه ، بعد لاي وعلى مضض باخذ هذا العمل منه «مجانا» وترويجه في شكل اوراق مطبوعة من ارخص اصناف الورق ! .. اما التفكير في ان هذا الشاب محتاج لتحضير ذلك العمل الى شراء مراجع ، والى اقتناء كتب توسع من آفاق دائرة اختصاصه ، لما هو محتاج لكي يتفرغ بكليته لعمله الى لوازم حيوية تتصل بضمان كفافه المعيشي ولا يجدها في هذا المجتمع بدون مقابل .. فهذه كلها امور « مادية » لا شأن لها بالموضوع ما دمنا هنا من حيث المبدأ امام مفهوم اسطوري لعمل الفكري : وهل اللهو لتأملي « عمل » كالعمل ؟! .. ومتى اصبحت المحاصيل « اللفظية» معادلة في قيمتها للمحاصيل الزراعية او الصناعية مثلا ، من حيث الكم والكيف ؟! ..

ـ لا تحاولوا ايها الشبان « العباقرة !» ان تلوثوا المعطيات الروحية بادران المادة ، وانتم المنسوبون على الزهد في المادة لانكم تنتمون الى عالم المعنى والروح ! .. ولا تسفوا بمستواكم السماوي الرفيع الى درك « الشغيلة » في المزارع والمصانع .. لانكم من زمرة الملائكة والارواح ! وحتى اذا ما قرصتكم لذعات المسغبة فلكم من الالام خير كفيل يشحذ قرائحكم ويصهر عقولكم الخلاقة ! .. او تشذون عن قانون الزهد الماثل في روعة المأثور الحكيم : « جوعوا تصحوا » ؟! .. ثم الم يمت معظم المفكرين في العالم العربي معوزين ؟..

اسمعوا قول الشاعر :

« في مصر عاش « أبن حيان » على شظف
يقتات بالعشب في مصر « ابن حيان ») (1)

واحمدوا لعصركم المحظوظ انكم لما تبلغوا بعد هذا المدى الارفع من تحقق « وحدة الوجود ! » التي تتلاشى فيها الفوارق ـ (من حيث القوت على الاقل) ـ بين الانسان والحيوان ، وهي خطوة سامية ولا ريب من خطى تحقيق المساواة بين البهائم والبشر ، كما هي احدى المظاهر الدائمة لما تنادي به نظرية « المدرسة الداروينية » العلمية من قرابة عريقة بين الادميين واجدادهم القرود ! ..

لقد قصدت الى التعبير عن جو نفسي معين تمثله عقلية خاصة ، وليس من الضروري بطبيعة الحال ان تكون التعابير هي نفسها ، اذ من المفهوم انها صورة رمزية تعبر عن منطق خاص لمفهومية معينة ، قد تختلف مستويات التدرج مع منطقها من واحد لاخر في التعبيرات والجزئيات والسطحية والعمق (في التفاهة والسذاجة بطبيعة الحال!) ولكنها تظل بعد كل حساب تشف عن جو واحد ، وتصدر عن عقلية مفردة لمن يهتم في الصورة بالدلالة التي هي الجوهر واللباب ..

لذلك يكثر في الدرب سقوط الضحايا الذين يضطرهم ذلك المفهوم الشائع للعمل في كليته الى التخلي عما آمنوا

(1) البيت لمحمود ابي الوفا من قصيد طويل بعنوان « امواج » نشر في مجلة الاديب اغسطس ١٩٥١ العدد ٨ المجلد ١٠ السنة ١٠ الصفحة ١٤ ـ ١٥ ويلاحظ ان محمود ابالوفا وهو من اكبر شعراء الجيل الماضي، يأتي في طليعة من ذهبوا ضحية لهذا المفهوم ، وهو لعزة نفسه لم يجد حتى الان من يضعه في مكانه كشاعر عربي عظيم .

بجدواه ، لينغمسوا في بالوعة التفاهة ، وليسخروا اقلامهم في الصحافة التي تروج في مجتمعنا « الناضج » : «للكواكب » واخبار « السابحات الفاتنات » ، او على الاكثر لهذا الضجيج من الحماس الاهوج الذي ندعوه « مقالات سياسية » او « ادبية » ونحو ذلك من الكلام المعاد صباح مساء .. وذلك لكي يضمنوا مجرد الابقاء على الرمق.

ان هذا الجيل من الشباب المفكر مهدد بالانقراض ، بل ان الثقافة العربية مهددة بالانحطاط اذا استمرت هذه الحال .. ولذلك ينبغي علينا ان نواجه المسؤولين ابتداء من انفسنا لنعطي للاخرين القدوة والمثال ، فنسعى الى القيام بانقلاب جذري في مفهومنا « للعمل » ، فلا يظل المجتمع يعيش على ترهة تمثل انفصاما مرضيا في مفهومه المتفسخ لشعوذة تسمح بصنفين من العمل ، كلاهما لا يمثل غير خرافة تصورية لمجتمع متخلف الغى عقله واصبح يعيش على الهرطقة .. ان هناك « عملا انسانيا واحدا » يختلف في الدرجة والوسيلة ودائرة الاختصاص ، ولكنه يظل هو ذاته من حيث النوع والقيمة التي هي ضرورته للحياة .. ومن ثم يتعين علينا ان نخلص « المتثيقف » من احتقاره التقليدي للعمل اليدوي ، ونعلمه ان العمل اليدوي ملازم للفكر ودليل على التفكير ، والا اصبح مجرد الية لا توجد في غير الالات ، او هو في الاكثر نوع من الالية الحية في جثمان آدمي فاقد لعقله في حالة الجنون .. كما يجب ان نخلص الصانع الرامي والانسان الشعبي عموما من احتقاره « للكلمة » ، بان نعلمه ان حياته تتردى الى منحدر العجماوات لو شيدت على غير الفكر الذي هو العمل معبر عنه بصورة اخرى لا تعني ضرورة تقابلهما كالاضداد ..

كما يجب القضاء نهائيا والى غير رجعة على «مجانية » العمل ، لان مسلمة : (لكل : عمل ــ مقابل) بديهية مطبقة في كل عالمنا ــ باستثناء العالم العربي والاسلامي طبعا ــ كما هي مطبقة في كل العوالم المحتملة ، واعني الميتافيزيقية منها بالنسبة لمن يؤمنون « بالاخرة » ، فالاله نفسه ــ سبحانه ــ قد جعل ضروب النعيم الاخروي مرصودة من حيث المبدا « كمقابل » سخي ، « للعاملين » عليها من عباده الذين قدموا في « دنياهم » مايبرر احرازهم عليها في « اخراهم » من صلاة وصيام وزكاة ...

ولا ينبغي ان ننسى ان هذا « المقابل » يجب ان لا يتضمن معنى « العملة النقدية » فحسب ، وانما يتعين ان يقترن بعنصر « الاعتبار » الذي هو التقدير والمحبة ، لانه « ليس بالخبز وحده .. يحيا الانسان » ..

ان الملتزمين بشرف الكلمة ، وجميع المسؤولين على الثقافة في العالم العربي : هيئات ودور نشر ومجلات ، افرادا وجماعات ، مدعوون الى تجنيد كل الاكفاء والى البحث عنهم في تلك الامكانيات والطاقات البشرية المهدورة التي تعاني اليأس والقنوط ، وتمزق انسانيتها اللامبالاة والاحتقار .. تلك هي القضية ، فهل من سمع ايها السادرون ؟! ..

الطيب الشريف

ستظل جزائرنا خضراء

*

خضراء .. جزائرنا الخصبه ..
خضراء .. يوشيها العندم ..
بالدم ...
وترفرف فوق روابيها
رايات المعركة الغراء ..
ويغنيها ...
ويزغردها .. في الجو رصاص ..
من فوهة بركان ثائر ..
في الف شهيد .. مبتسم الثغر ..
مخضوب .. من دمه الطاهر ..
قد كحل عينيه .. بسنا الفجر ..
والتف .. برايته البيضاء ..
ووميض .. يلمح في الظلمات ..
خلف الاسوار ..
من اعين آلاف الثوار ..
من اعين آلاف النجمات
حلفت .. ان لن ترقد ..
ما دام استعمار اسود ..
ما دام عساكر « هولاكو » ..
والطاعون الفتاك !!..
وعهود .. يقطعها الاحرار ...
ان لن يحيا الاشرار ..
ما دام هنالك الف جميلة بوحيرد ..
ما دام هنالك الوف من « عقبة »
يفدي شعبه
بالروح .. وينتظر الوعد ..
ستظل جزائرنا .. خضراء ..
خضراء كغصن الزيتون ..
كمروج بلادي .. في نيسان ..
خضراء .. ستنبت حريه ..
رغم القضبان الدمويه ..
وتفتق ازهارا حمراء ..
كجراح ضحايانا الغراء ..
كشقائق نعمان .. فتحها نوار ..
لتوشي ارض جزائرنا الخضراء ..
بالغار .. وبالازهار ! ..

القامشلي **محمود محمد كازي**
« جمعية الادباء العرب »